عنف الإنسان الأول؛ بين الحيرة والحرية المشروعة في هزيمة الموت بالموت.رواية "الجانب الآخر لأرض الميعاد" لـ " أحمد حرب"

The violence of first human :between confusion and legitimate freedom in defeating death by death .novel ¨ other side of promised land ¨ by AHMED Harb

تاريخ الاستلام: 2022/04/24 تاريخ القبول: 2023/05/28 تاريخ النشر: 2023/06/18

نعيـــــمة سعيـــــدي *

جامعة باجي مختار – عنابة (الجزائر)

Email : n.saidi@univ-skikda.dz

مجلة البحوث والدراسات الإنسانية المجلد 17/ العـدد 01 –السنة 2023 ص ص 1137-1152

EISSN : 2588-2317 ISSN : 1112-8151

الملخص:

أدت الحوادث الطارئة على الجغرافيا الأولى إلى تغييرها بصورة مأساوية، حيث لم تبق داعمة وصلبة، بل تحولت إلى مكان غريب، مقلق ومحير، بسبب فقدان الانتماء إلى مرجعية رئيسية "الأرض"، وهذا ما يرشح بروز الحدث العنيف، مرافقاً للإنسان الأول كنوع من التجارب الإنسانية الملحمية والمأساوية على حد سواء .

إنّ تعرض الإنسان الأول لاستلاب حقه الفطري في الحرية، يعجل في إعادة بروز الإنسان الشهيد؛ إنسان يرى حياته في موته، ليعلو الاستشهاد رتبة مقدسة، تسعى إلى الحفاظ على الجغرافيا الأولى، مختزلة جهود الإنسان الحر في مواجهة الموت بالموت، لأنّ الاستعمار حدث عنيف دائماً. تقدم المجموعة الجريحة الشهيد كقيمة جمعية مقدسة أخلاقياً ودينياً واجتماعياً، إنسان حر ما زال يؤمن بما ترويه الذاكرة التراثية، وبما تمليه عليه إرادته ورغبته الروحية في العودة يوما ما إلى المكان الأول.

الكلمات المفتاحية *: تجارب الموت، تجاوز الموت ، المكان.*

Abstract:

The accidents that occurred on the first geography led to its tragically changing, as it did not remain supportive and solid, but rather turned into a strange, disturbing, and confusing place, due to the loss of belonging to the main reference "the Earth", and this is what filters the emergence of the violent event, accompanying the first human as a kind of experiences Humanity is both epic and tragic. the exposure of the first person to the usurpation of his innate right to freedom hastens the re-emergence of the martyred man, to raise martyrdom a sacred rank, seeks to preserve the first geography, reducing the efforts of the free person in the face of death to death,.

The wounded group presents the martyr as a morally, religiously and socially sacred value, a free person who still believes in what the heritage memory tells, and what is dictated by his spiritual will and desire to return one day to the first place.

Keywords: death experiences, transcend death, the place

* المؤلف المرسل: نعيمة سعيدي

مقدمة

يشكل المكان ضمن السرد الروائي الفلسطيني جوهر الكتابة ومركزها، الذي تلتف حوله الأحداث ومنه تتفرع، وللمكان خصوصية واضحة تجعله مختلفا عن باقي الأمكنة، فهو يتأرجح بين الغياب أو العدم الجغرافي وبين الحضور أو الوجود العاطفي، ليمنح المكان تأرجحا دائما مفقدا بذلك خاصية اتزانه وصلابته، ليغدو رخوا وهشا، تماما كما أرض الآخر الغريبة، ولعلّه من أكثر الفضاءات تناقضاً؛ حيث يغدو الوطن مكاناً مقلقاً ومحيراً تختلف صوره بين المنفى، السجن، المخيم، والفضاءات المستحيلة، كما يفقد خصائصه التي وجب حضورها لتوفّر علاقة اتصال بينه وبين الإنسان الفلسطيني. في أحايين كثيرة يفقد هذا الفلسطيني تعاطفه مع المكان أو يفقد المكان تعاطفه مع ساكنه الأول "ولأنّ المكان فعل وجود وفعل وعي الهوية فإنّ الآخر يعمل على اكتساح مكان الأنا سعياً إلى حرمانه من مبرر الوجود وزعزعة لوعي الهوية من جهة والانغراس فيه من جهة ثانية " (سعدي). ليصير مكاناً معادياً وعنيفاً، لقد أصبحت نظرة الفلسطيني للمكان نظرة غير منطقية، فالمكان الذي يمثل ثبات الإنسان أصبح "حيرة حقيقية" ممتدة، ممّا يفرض على الإنسان تبني فكراً جهادياً يواجه الموت بالموت .

لعل رواية "الجانب الآخر لأرض الميعاد" تتجاوز حدود الحيرة إلى قلق المكان وتكلفته أيضاً حيث يضج المكان أساساً بالانتفاضة، والتي تعد أهم حدث بعد نكسة 1967"برهنة حركة الانتفاضة على سقوط الأساطير، التي كانت تهدد بتوقف حركة النضال الشعبية الفلسطينية أو إغراقها في انقسامات بالية" (الغني، نقد الذات في الرواية الفلسطينية، 1994، ص 122)

كانت الفترة الممتدة من (1987-1993) فترة مهمة من عمر الرواية، استطاع فيها الروائي التحرر من عقدة الذنب التي ظّل حبيسا لها، نتيجة التقاعس والتخاذل الذي عاشه الإنسان، الذي غيبّ في داخله حقه في الكفاح والانتصار، لقد سمحت الانتفاضة بعودة الثقة والرضا عن النفس ولو بقدر، تجلى هذا في التفاؤل الاستشرافي الذي نلمسه في عديد الكتابات الروائية، ولعل مرده إلى الكفاح النضالي.

2 – رؤية تنويرية لرواية الجانب الآخر لأرض الميعاد" :

رافقت الكلمة السلاح من أجل تحقيق النصر، وكانت الرواية أوسع ميدان لكفاح الكلمة، التي رافقت انتفاضة 1987م، التي قد قهرت عقدة الذنب" ما وصلنا إلى (الانتفاضة) في نهاية

الثمانينات نكون قد وصلنا إلى اختفاء الشعور بالذنب، واستبدلنا به الشعور بالفعل ونقد الذات" (الغني، نقد الذات في الرواية الفلسطينية، 1994، ص 30) وكانت رواية " الجانب الآخر لأرض الميعاد" لـ"أحمد حرب" 1990"واحدة من الروايات التي اشتغلت على فكرة الانتفاضة ونقد الذات ومواجتها:

تشكل رواية "الجانب الآخر لأرض الميعاد" الجزء الثاني من رواية "إسماعيل"، وهي بشكل جزئي استجابة فلسطينية لرواية الكاتب الإفريقي آبي كوي آرمه "لماذا نحن مباركون"، هذا ما ٌّون على الص الأولى لغلاف الرواية، وهي لصاحبها "أحمد حرب" كاتب وروائي وأكاديمي فلسطيني، من مواليد بلدة الظاهرية عام 1951م حاصل على درجة الدكتوراه في الأدب الإنجليزي والمقارن والكتابة الإبداعية من جامعة **ايوا** بالولايات المتحدة أستاذ الأدب الانجليزي والمقارن في جامعة بير زيت، نشر عدة روايات من أهمها الثلاثية التي تضم الروايات (إسماعيل) و (الجانب الآخر لأرض الميعاد) و(بقايا) ثم صدر له رواية (الصعود إلى المئذنة) ونشر العديد من الدراسات الأكاديمية في الأدب والنقد.

تحمل الرواية مقداراً من التشابك والتأزم والعنف، يتجلى ذلك في: الشخصيات وقناعتها المختلفة جنائز الشهداء الحواجز وساعات الانتظار، بداية الانتفاضة وسرد أيامها الدموية وتحول قرية "العين" مكاناً يتناوب عليه القصف، حظر التجول، الموت، نقاط التفتيش، معارك الثورة السياسية، الانقسامات والخيانات الوطنية، والحب المشبوه مع الآخر "اليهودي"، معركة المثقف البعيد عن الأحداث، هواجسه وقلقه وذاته الحالمة بالحب والجمال، الذي يغيب تحت زحمة الأحداث والرقابات العسكرية، الحرب النفسية لإحباط الآخر، الضحك الهستيري المظاهرات الضخمة، اقتحامات اليهود، التعذيب، وصرخات الأجنة المجهضة داخل المغارة.

ثم ّفي آخر فصول الرواية يبرز التوجه إلى شيء من الهدوء والخلوة بالنفس؛ استحضار للماضي ولأسماء أدباء وفلاسفة وشخصيات الرواية في سرد مختصر، فيه تداخل بين العهد القديم وقصة مريم (أرنونا) اليهودية، كشف لحب مدفون، وشيء من عمليات الفدائيين .

تختصر الرواية الاشتباكات المتجددة، المتواصلة والمكلفة جداً، حيث تظهر مدينة " نابلس" و" قرية العين" بؤرة القلق المكاني، هذا القلق الذي يناقض طمأنينة المكان الأول ولذّاته، يفرض

فضاءات أخرى، قد تبدو في الوضع الطبيعي غير منطقية، كما تفرض على الإنسان أن يحيا وضعاً مناسباً لعنف المكان وحيرته.

3 – عنف الإنسان، الاستشهاد وتجاوز الموت "هزيمة الموت بالموت"

يستدعي الحديث عن الحرب العنيفة بالضرورة صور"الموت" العنيف، الصادم، المفاجئ والمخطط له أيضاً والموت بوصفه ظاهرة وتجربة، جلبت انتباه الإنسان، شاغلة فكره ووجدانه منذ التاريخ الأول، وقد اختلفت التفسيرات حولها ورغم ذلك تتفق في كونها مصيراً إنسانياً عاماً.

وقد حفل الإنسان بصورة الموت بطريقة مكثفة، محاولا كشف كنهها الغامض، وقد رافقته مشاعر مختلفة بين الخوف والفزع من لحظتها، وبين قداستها وتجاوزها إلى الخلود الأبدي، ولعل تتبع تجربة الموت تأخذنا – بدءاً– إلى الإنسان الأول، إلى الفلاسفة، وإلى الإنسان المؤمن الذي تعرف إلى الموت وفق اعتقاد أملته الكتب السماوية المقدسة.

4 – تجربة الموت عند الإنسان البدائي:

ظل الإنسان البدائي يفسر طبيعة الموت وفق ميتافيزيقا أساسها غيبيات شريرة "الإنسان البدائي لم يستنتج من حالات الوفاة التي شاهدها أنّ الموت ضرورة حتمية للوجود البشري وإنّما يرده باستمرار لعوامل شريرة" (شورون، 1981، ص 12).

في البدء يبدو أنّ الإنسان ولد للخلود، لكن بسبب العصيان خرج من دائرة الخلود ودخل إلى حيز الزمن، الذي يستهلكه بمروره عليه "وقد حل الموت بالعالم بسبب خطأ ارتكبه" (شورون، 1981، ص 16) غير أنّ الإنسان البدائي كان يعد الزمن دائرياً وبالتالي تتقاطع نقطة انطلاق الحياة ونهايتها مع انبعاث الحياة مرة أخرى، والموت أمر جزئي يأتي على الجسد، بينما الأرواح تبقى، هذا الوعي الأسطوري لفكرة الزمن والموت كان مبعثه الفكر الجماعي، الذي لم يتخلّص الإنسان فيه من سلطة العشيرة أو القبيلة، فالروح جماعية تنتقل من جسد بعد موته إلى جسد آخر جديد، مما رشح فكرة الخلود بعد موت الجسد.

5 – مفهوم الموت عند الفلاسفة :

تقدم الفلسفة اليونانية رؤية تقترب في بعض جوانبها من اعتقاد الإنسان البدائي، حين قدم "فيتاغورس" فكرة تناسخ الأرواح، خاصة وأنّ الجسم ما هو إلّا سجن لهذه الروح، وعند الموت

تغادر إلى جسد آخر وهي في كل مرحلةتخلص فيها من الجسد، تكون أكثر نقاءً ، إلى أن ترتقي في آخر مراحلها متوحدة مع الذات الإلهية.

وعدّ "أرسطو طاليس" الموت أمراً صادماً، حين قرر أنّ أصل الأشياء واحد هو الماء "الماء أصل الأشياء" (شورون، 1981، ص 36)، ورأى أنّ الماء لا يهرم ولا يموت، والمخلوقات جميعها من أصل مائي، فكيف يلحقها الموت؟ وبالتالي فالموت شبيه بالصدمة.

وقد واجه "سقراط" فكرة الموت بكثير من الشجاعة، إذ انطلق من اعتقاد أنّ الإنسان من الأشياء المنتهية في هذا العالم "لكن عظمته تتمثل في تقبله لوضعه بحس المسؤولية، وبقوة عارمة للشخصية في مواجهة الموت" (شورون، 1981، ص 48)، ورأى أنّ الخوف من الموت هو ما يجعلها "الشر الأعظم" وعدّها شبيهة بالنوم المفرغ من الأحلام، أو سفر الروح إلى عالم آخر.

كما يركز "سقراط" على موضوع الشيخوخة والذي يقلل الخوف من الموت، إذ تؤدي الشيخوخة إلى تراجع الوظائف العضوية، والتي تؤدي إلى عجز الإنسان في مواجهة الحياة وبالتالي يغدو الموت الحل الأنسب للتخلص من هذه المواجهة.

بينما ينحى "أفلاطون"منحى آخر، وعدّ اعتماد الخلود بعد الموت في حد ذاته عزاءً لمواجهتها " كذلك أدت ساعات سقراط الأخيرة، وشجاعته، وتماسكه، في مواجهة الموت ومناقشته لطبيعة الموت بأفلاطون إلى تطوير الحجج القائمة على خلود النفس" (شورون، 1981، ص 58).

واعتمد "أفلاطون" فكرة الروح سابقة لميلاد الجسد، وهي المسيطرة عليه، كما أنّها بسيطة غير مركبة، وكل ما هو بسيط لا يفنى لأنّه لا يتجزأ ولا يتفكك، وعليه يلحق أفلاطون الروح إلى الآلهة الخالدة ، وهو بهذا يحافظ على رؤية معلمه "سقراط".

كما حافظ "أرسطو" على رؤية معلمه "أفلاطون" في فكرة سْقِ الروح للجسد، ورآها متنقلة من جسد إلى آخر "ويؤكد بالتالي على بقاء الشخصية الفردية الواعية بعد الموت" (شورون، 1981، ص 61) لكنّه في محطاته الفكرية اللاحقة، يتمرد على هذا الطرح، ويراه امتداداً للطرح الأسطوري البدائي، الذي يؤمن بانتقال الأرواح من الأجساد الفانية إلى أجساد أخرى جديدة، فمن المستحيل – حسب أرسطو- أنّ تواصل النفس "الروح" البقاءواعتمد مُعطى جديداً "العقل"، إنّ العقل يمنح الإنسان قدرة التفكير، وبه يبتعد عن الحيوان ويتميز، وهو خالد غير فانٍ، "والعقل

إنّما يأتي للإنسان من الخارج إنّه العنصر الإلهي في الإنسان، وهو وحده الذي لا يفنى عند الموت" (شورون، 1981، ص 63) وعدّ الموت شّرا، لكنه ليس عبثاً، وعلى الإنسان أن يكون شجاعاً أمام فضاعة الموت، التي تكون نتيجة الحوادث العظيمة، التي تحمل آلاماً كبيرة كالحروب التي يعيشها الإنسان.

وتواصل الفلسفة حديثها عن الموت وتخرجه من كونه –عرضاً– كما كان يرى الإنسان البدائي إلى كونه أمراً حدسياً، ولكن الإنسان يمنعه من الظهور عن طريق قمعه، فالحديث عن الموت أمر كريه ومنفر في الغالب، كما أنّ الموت أمر يكون بالمعايشة الفعلية له، أو ما يسميها "لاندرسبيرج " تجربة الموت "، والتي تقع بسبب خلل في العناصر العضوية الجسمية كالإغماء، الغيبوبة، النوم العميق، أو عن طريق الاحتكاك مباشرة به، كما في الحوادث وفي الحروب، وبصفة خاصة عند موت شخص نحبه .

6 ـ صورة الموت وفق النظرة الدينية:

الحديث عن موضوع الموت طويل وشائك، وسنحاول تقديم رؤية مختصرة نختم بها التمهيد عن هذا الموضوع الغامض والمنفر في الغالب:

في التوراة القديم "الكتاب المقدس العبري" يبدو الموت " نتيجة لعصيان الأوامر الإلهية، يقول الله لآدم وحواء ألّا يأكلا من ثمرة شجرة معرفة الخير والشر تحت طائلة العقاب بالموت، وإنّه في هذه العلاقة الإلهية البشرية ومن خلالها يعصيان ويأكلان، فيخرج الرب آدم وحواء من متع جنة عدن" (ديفيس، 2014، ص 22). وقد تناول قصة "قابيل وهابيل"، وقتل الأول للثاني وإدراك الموت الأول للبشرية، وتواصل ذريتهما العداء الشديد فيما بينهما، وعليه يقرر الرب أن يحدد أعمارهم بـ: 120 سنة، ثم يحل الموت الأعظم بالأرض في هيأة طوفان، وينجو "الشعب المختار" ولم يكن هذا الشعب يحلم بفردوس فردي بعد الموت بل كان يحلم بوجهة سفر إلى أرضهم الموعودة، "إنّ الأفكار حول حياة فردية بعد الموت هي أفكار مبهمة ليس لها وجود" (ديفيس، 2014، ص 24).

كما احتفت المسيحية بالموت " فقال لهم يسوع أنّا معكم زماناً يسيراً ثمّ أمضي إلى الذي أرسلني" (انجيل يوحنا الاصحاح19الاية 34) ، وقد ارتبط الموت والألم بالتكفير عن الخطيئة، "فسر الألم والموت بأنهما تكفير عن آثام جميع البشر وتحقيق عهد إلهي يتخذ صورة جانبية متميزة" (ديفيس، 2014، ص 25)، وأنّه ترميم للروابط المهدمة بين الرب والإنسان، وموت يسوع الناصري الأليم(

عيسى بن مريم عليهما السلام) " لكن واحدا من العسكر طعن جنبه بحربة ولوقت خرج دم وماء" (انجيل يوحنا، الإصحاح19، الاية 34) يطهر الذين آمنوا به من خطاياهم.

حسب "الإنجيل" يبدو أنّ الرب قد غفر خطايا المؤمنين عبر كفارة(موت) "يسوع الناصري" "ولعّل أهم ما فيه على الإطلاق هو أنهّ قد قهر الموت بقيامة المسيح، وفي الوقت المناسب تُعاش خبرة انبعاثه في انبعاث الأفراد المؤمنين في الأيام الأخيرة" (ديفيس، 2014، ص 25) وهذه تحمل فكرة تجاوز الموت إلى الخلود في انبعاث الأفراد وقيامتهم "في موته التكفيري مات ومع ذلك خضع موته للقيامة" (ديفيس، 2014، ص 26)، ويؤكد الانجيل هذه الفكرة " "فقال لهم يسوع أنا هو القيامة والحياة من آمن بي فسيحيا ولو مات" (إنجيل يوحنا ،الاصحاح11،الآية 250).

ثم مع انتشار المسيحية بوصفها ديانة الإمبراطورية الرومانية، ووصولها للعالمية على امتداد الإمبراطورية وسيطرتها على أوروبا في العصور الوسطى، ظهر ما يسمى بـ "الشهداء"، كما دعت المسيحية في هذه العصور لتذكر الموت على امتداد حياة الإنسان، مماّ شكل صورة مفزعة، فكان الفزع من الموت فزعاً عاماً "أضحت لحظة الموت ذات أهمية فائقة، حيث أنّ فراش الموت أصبح ينظر إليه باعتباره أرض المعركة للقتال الأخير اليائس، الذي يخوض غماره الشيطان وزمرته، من أجل الحصول على نفس الإنسان" (شورون، 1981، ص 107).

كما احتفى الإسلام بموضوع الموت، فقد تمّ ذكره مئة وخمس وأربعين مرة، وهو خروج الروح من الجسد، ثمّ إنه انتقال من مرحلة الحياة الدنيا إلى حياة البرزخ، في انتظار يوم القيامة، وبالتالي فالمعتقد الإسلامي يؤكد على ضرورة الاعتقاد بهذه الحياة الأخرى، وأنّ الأجساد تبعث من جديد يوم القيامة، ولا مجال لفكرة تناسخ الأرواح مطلقاً.

والحياة التي هي نقيض الموت مقدسة في الإسلام، فلا يجوز للمرء أن يقتل نفسه تخلصاً من الحياة، كما أنّه يحق له أن يقدم روحه ثمناً دفاعاً عن أرضه وماله وعرضه ليرتقي إلى درجة "شهيد" في الإسلام، والشهادة لم تكن مطلقاً مساوية للموت بل مساوية للحياة؛ " لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ" (سورة آل عمران، الآية 169)، وجزاء الشهيد جنات الخلود رفقة الأنبياء والصالحين والصديقين من البشر.

والموت في الإسلام هو انقطاع عن زمن الحياة الدنيا، واستمراره في زمن حياة البرزخ، ثمّ انقطاعه عن زمن حياة البرزخ ليتصل مباشرة بالقيامة، أين يكون المرء وجهاً لوجه مع المصير الحقيقي له، الذي يتسم أساساً بصفة الحياة الدائمة "الخلود" إّما في الجنة أو في الجحيم.

هذه نظرة مختصرة عن "الموت" في الفكر الإنساني، منذ بدء الخليقة إلى الآن، وقد اعتمدت التفسيرات البدائية الساذجة، إضافة إلى تعليلات الفلاسفة، وأخيراً ما قدمه الإنجيل والقرآن من إطار واضح للموت، ولما بعد الموت، ورغم كل هذه المعطيات يظل الإنسان يرتقب هذه المواجهة مع الموت بكثير من الخوف الطبيعي وبكثير من الأمل أيضاً.

أّما الإنسان المعاصر فقد نظر إلى الموت وفقاً للنظرة الدينية ولمعطيات الحروب التي عاش ويلاتها وخاصة الحربين العالميتين، زد على ذلك الحروب والاشتباكات التي مازالت مشتعلة في عديد بقاع الأرض، ولعل الاشتباك الفلسطيني اليهودي واحد من أكثر الاشتباكات تسلسلاً وتواصلاً، هذه التصادمات الطويلة، الممتدة، جعلت من الموت "خبزا يوميا" وجب تقبله وتقديمه ثمناً من أجل الحياة والأرض.

وبين الفلسطيني الذي كان وجوده حقيقيا تاريخيا، معتمدا على الزمان والمكان، واليهودي الذي يُعدُّ بأنه حقيقة مزعومة، تدخلت السياسة لتجعل منها أمرا واقعا، مفروضا بالاستلاب وبالموت.

إن الضغط المتواصل على المكان المستلب، وعلى الإنسان أيضا،كفيل بأن يحرر طاقة جديدة، من أجل تثبيت هوية المكان، هذه الطاقة كانت انتفاضة شرسة، رفض من خلالها الإنسان الوضع الغريب الذي يحياه،، والذي كانت فيه الأرض تبتعد في كل مرة أكثر من السابق، حيث إن المستعمرات اليهودية تزحف على نحوٍ يؤكد ضرورة الثورة التي لا تيأس، فالثورة تحقق انتماء الإنسان بطريقة عنيفة ومشروعة.

تُسّيّج رواية "الجانب الآخر لأرض الميعاد"الموت على أنّه مسلمة، كان الفلسطيني قد تبناها في صراعه مع اليهودي، متكئاً على المرجعية الدينية، حيث يسمو الموت إلى رتبة الشهادة، ويصير الميت شهيداً –بإذن ربه–حيّا حياة أبدية، وتصير الانتفاضة الفلسطينية التي تتحدث عنها الرواية، بوصفها الوجه النضالي المسلح قائمة على هذا الاعتقاد؛ الشهادة والاستقلال، فكلاهما

يوفران نوعاً من الحياة؛ الأول يضمن "حياة أبدية"، والثاني يوفر حياة طبيعية كما تقتضيها الفطرة البشرية في العيش الآمن المستقر.

ولعل معطيات أخرى كثيرة إلى جانب "المرجع الديني"تشجع تقديم "فكرة الموت" على الحياة، فحياة السأم المتواصل المشتد، والمسلط على الإنسان الفلسطيني نفسياً وروحياً، خاصة في مناطق المواجهات العنيفة – قطاع غزة مثلاً- والتي فضل فيها الإنسان البقاء على أرضه، مهما كانت الظروف والنتائج، ثم إنّ قدرة التحمل تتفاوت من شخص لآخر قوة وضعفاً "هذا الإنسان الجديد الذي يبدأ حياته من نهايتها، إنّه يعد نفسه ميتاً بالقوة، لسوف يقتل، إنّه لا يرتضي أن يعرض نفسه للقتل فحسب، بل هو موقن أنّه مقتول لا محالة" (فانون، 2015، ص 32). وبين الشجاعة والسأم، والرغبة في الانتصار بدل العيش الهش يفقد "الموت" وحشيته، كما يفقد مجانيته، صار التعامل مع الموت أمراً بطولياً داجناً.

في مقدمة كتاب " معذبو الأرض" لفرانز فانون Frantz fanon يؤكد "جون بيير سارتر" توجهات "فانون" والتي تتكلم عن العلاقة بين المستوطِن والسكان المحليين، التي قامت على الاضطهاد بكل أنواعه، وحتى لا تبدو جرائمه فإنّهم " أقروا هذا المبدأ وهو أن المستعَمر ليس شبيه الإنسان" (فانون، 2015، ص 25) وعليه وجب تحويل هذا المبدأ إلى واقع لتجريد الإنسان من إنسانيته، وحقيقة تؤكد رواية "الجانب الآخر لأرض الميعاد" هذه العلاقة التي تربط المحتل (اليهودي) بالسكان المستعَمرين (الفلسطيني)، حيث يوصف الساكن المحلي من طرف جنود المستعمِر بأنّه فضلات آدمية، أو أنّه قذارة، وهذا ما يتكرر كثيراً في شتائم الجنود للأهالي "حاولَ أبو قيس أن يمسح الماء بيده عن وجهه، فرآه الضابط، ضربه بالعصا على مؤخرته صائحاً: أنت يا خرا إيديك على راسك" (حرب، 2018، ص 41) "أسكت أنت واخذ خرا" (حرب، 2018، ص 41)، لعل السلطة والقوة الكاملة قد أفقدت المستوطن صوابهم "أصبح لا يتذكر جيداً أنّه كان إنساناً وإنمّا يحسب نفسه سوطاً أو بندقية حتى بلغ من ذلك أنّ ترويض "العروق المنحطة" إنّما يكون بإخضاع منعكساتهم للربط الشرطي" (فانون، 2015، ص 27).

إذا كان المحتل اليهودي يسعى إلى إذلال الفلسطيني بطريقة دنيئة، حتى في أكثر الحاجات خصوصية والتي لا تخرج عن الجانب البيولوجي للإنسان، إن كان قد نعته بـ "فضلات" يبدو أن

التخلص منها لم يكن بالأمر الطبيعي الفطري، فعلى الفلسطيني إن أراد "التبول" كما يرد في النص الروائي، أن يتبول في ملابسه أو أمام آدميين آخرين "شخ في أواعيك" (حرب، 2018، ص 176)، "أحضروا لنا سطلاً في إحدى زوايا الخيمة، وكان على من يضطر لقضاء حاجته أن يكشف عورته، والباقون واقفون إلى جانب السطل، ليوفروا له طولاً مناسباً من الجنزير حتى يتمكن من قضاء حاجته، ولقد اكتشفت أنّه حتى قضاء الحاجة تعتمد على الحالة النفسية للفرد" (حرب، 2018، ص 176).

كيف لنا أن نصنف هذا السلوك الذي ليس بإنساني ولا حيواني (حتى الحيوانات لا تصنع ببعضها هذا) هل يصنف بأنّه عنصرية؟ أم جنون؟ أم أنّه حقد؟ أم أنّه خوف؟ أم أنّه رغبة في الإبادة التامة لحرية الإنسان؟ نظن هذا السلوك خوف، حقد ورغبة في إبادة الإنسان وتحويله إلى دون مستوى البشر، بنى اليهودي علاقته مع الفلسطيني على القوة العسكرية وعلى التحطيم النفسي، حيث يضغط ذاكرته بكم هائل من الذكريات الأليمة التي لا تنسى: الضرب، التقتيل، الإهانة، والتشكيك في آدميته للوصول إلى ثنائية السيد والعبد.

7 – رد الفعل أنا إنسان عنيف فأنا حر:

"إن محو الاستعمار إنّما هو حدث عنيف دائماً" (فانون، 2015، ص 39).

تشتعل الانتفاضة في القرى والميادين دون خوف من الموت، صار الموت أمراً طبيعياً يزاحم الحياة بصورة شبه يومية: "عندما يكون الموت في كل مكان يفقد سلطانه" (حرب، 2018، ص 169).

حتى الموت لا يمكنه إيقاف الانتفاضة، التي كانت أساساً من أجل الأرض، لأنّها تضمن أولاً السيادة سيادة الإنسان لنفسه وأنّه ليس شيئاً آخر؛ ليس حيواناً أو فضلات كما يصفه المحتل، والتي تجعله أقل منه على الرغم من أنّ كليهما إنسان، فما الذي يجعل إنساناً سيداً متفوقاً في مقابل أن يصبح الآخر عبداً متأخراً.

إنّ الانتفاضة في صورتها العامة هي انتفاضة إنسان، يعيش وضعاً غير طبيعي ولن يعود الوضع إلى طبيعته دون الأرض، ولن تعود الأرض دون ثورة "القيمة الأساسية عند الشعب المستعَمر إنّما هي الأرض لأنّها هي القيمة المحسوسة الملموسة، الأرض التي تكفل الخبز، والتي تكفل الكرامة طبعا" (فانون، 2015، ص 46).

إن الانتفاضة تدمر التصنيف الذي وضعه الآخر اليهودي" الاحتلال الصهيوني العنصري الذي يدأب على اعتبار العربي في الأرض المحتلة نوعاً منحطاً من البشر" (كنفاني، 2015، ص 73)، حيث "الأنا الفلسطيني" غير شبيه بالإنسان، أو في درجة أقل أو أنّه "فضلات"، كما تحطم العلاقة التي يبدو فيها الآخر اليهودي سيّدا، والأنا الفلسطيني عبداً، وتجعل من الفلسطيني نداً لليهودي، لأنّه لا فرق بين الإنسان "إذا كان لحياتي من القيمة مثل ما لحياة المستعمر، فلن تخيفني بعد الآن نظرته، لن تسمرني في مكاني، لن يجمدني صوته، لن أضطرب أمامه، لن أعبأ به، لن يربكني وجوده، بل إنني منذ الآن أعد له الكمائن ما يجعله في القريب لا يجد لنفسه مخرجا غير الهرب" (كنفاني، 2015، ص 74).

إنّ ثنائية الأنا والآخر في"الجانب الآخر لأرض الميعاد" هي صراع عنيف في صورته العامة، قائمة على الاستلاب والفقد، السيادة العسكرية وسيادة الإنسان الفطرية، العنف والعنف المضاد، أنها أشبه بمنبع كهرباء ومنبع ماء، لا يمكن بأي حال إقامة علاقة بينها.

وتواصل الرواية اهتمامها بموضوع الاستشهاد، الذي يبدو غير عبثي، وغير مساو لباقي صور الموت إذ تحتفي بهذا الإنسان الذي يرى حياته بعد الموت "نحن نجد إنسانيتنا سابقة على الموت والبأس، أما هو فيجدها بعد العذاب والموت" (فانون، 2015، ص 32)، يواجه الشهيد الموت الذي يتراجع جبروته أمام إصرار هذا النوع من البشر في التغلب على الموت بالموت، وفي التغلب على المهانة بالموت " تكلم أبو قيس عن مواجهات عنيفة مع الجيش صباح اليوم أدت إلى سقوط سبعة من الشباب" (حرب، 2018، ص 38) يقدم الشهداء الشباب مصير أمتهم على مصيرهم، في اختيار يتجاوز الوجود الحسي، ليرتفع إلى أقصى درجات الإيثار والبطولة " لم تمنعهم صورة الموت عن النضال حتى الرمق الأخير، فجهادهم جزء من ثقافة "حياة أبدية" (المناصرة، 2019).

يمثل سقوط سبعة من الشهداء الشباب صورة الاستشهاد الجماعي، الذي بُني على اتفاق الرؤية الفلسطينية من أجل خلاص الأرض، فالاستشهاد لم يكن أبداً عملاً فردياً انعزالياً، بل كان اختياراً جماعياً تبناه الإنسان في أروع سنوات العمر البيولوجي وأقواها. إنّ التخلي عن هذه القوة والزج بالجسد والروح ضمن نطاق أسود "الموت" لم يكن بالأمر الهين، أنّه يتطلب شحنات عظيمة من الشجاعة، ومن الوطنية أيضاً، وحدهم الأبطال يعملون مع الموت وجهاً لوجه، ووحدهم

الخارقون والمقدسون يتجاوزون الموت بإيمان عميق يرفعهم إلى مرتبة الشهيد الخالد، هكذا وظفت الرواية شخصيات الشهداء وإن لم تكن قد فصّلت فيها، إلاّ أنّ التفاصيل السردية المرافقة لجنائزهم تؤكد قدسية الشهيد، حيث ترافق الأغنيات الشعبية الخاصة بالفرح جنائز الشهداء :

سبّل عيونه ومدّ إيديه يحنونه   خصره رقيق وبالمنديل يلفونه
سبّل عيونه ومدّ إيديه على راسي   خصره رقيق ودّع عني ومش ناسي
سبّل عيونه ناداني وسرى بدري   خصره رقيق وزنّاره من الصخر

(حرب، 2018، ص 42)

تغني النسوة للشهداء أغنية تغنى للعريس، في مفارقة واضحة بين المقال والمقام الذي يقال بحضرته، وبين الموت والحنّة والأغنية يبرز الشهيد قيمة مقدسة، تقف على جانب أخضَر لحياة أخرى، فالشهيد وفق المنظومة القيمية الدينية "حّي" وليس "ميتا"، لهذا يتمثل الشهيد في أغنية فرحٍ عريسا يمد يديه للحنّة وأمه تغني له، لتتجلى الأم الفلسطينيةأقوى من أي أمّ ، أمّ تغني لابنها الشهيد أغنية العريس، أمهات لا يبكين بل يغنين .

دائما يرتفع الشهيد مرافقة إياه الزغاريد، التي هي أيضا من تعابير الفرح، في الثقافة العربية، وبعض الثقافات الشرقية، إنّ هذه القوة الناعمة تشكل قوة حقيقية في وجه الموت، فالمقاومة عن طريق "القوة الناعمة" لها تأثيرها القوي جدا على النفسيات، إن هزيمة الموت بأغنية فرح يساوي المعجزة، وهزيمة الفناء بالحياة يساوي المعجزة أيضا.

إن الطقوس المرافقة لجنائز الشهداء تجعل للموت تجلٍّ آخر، ناتج عن اجتماع المأساة بالحياة، أو المرور بتجارب الموت دون تجاوزها، فذاك الفراق الأبدي للإنسان في عز شبابه، يمثل صورة فطرية لهزيمة الإنسان أو هزيمة الأمومة أمام الموت، ولعلها الهزيمة الوحيدة :

حفّار قبر الشهيد علّي بابه   يهب الغربي على سردابه
حفّار قبر الشهيد علّي عتبته   يهب الغربي على مصطبته
يا ريت القبر اللّي لملم الشباب   ينبت عليه الخوخ والرمان
الشّهيد لو خش الجنينة نورت   ضحك السفرجل برجم النعمان

(حرب، 2018، ص 48)

بين "سبل عيونه ومد إيده يحنونه" "حفّار قبر الشهيد علّ ,,,," يتفوق الشهيد العريس زمنا وقداسة، وتتفوق الحياة على الموت فالقبر ليس مكانا للموت والنهاية بل هو مكان للأمنيات:

رِيحُ القَبْرِ الذِي لَمْلَمَ الشَّبَابْ يَنْبتُ عليه الخَوخُ والرُّمـــــَّانْ (حرب، 2018، ص 48)

والقبر أيضا ليس مكانا للموت فكل قبر ينام به شهيد يصير جنة من فواكه وأزهار كما ورد في الأثر "روضة من رياض الجنة".

وهكذا بقوة ناعمة تهزم الأغنية الشعبية "الموت"، وتكسر غبطة "الاحتلال" في الاحتفال بموت الإنسان المدافع عن حقه.

ويرافق العدد سبعة (7) الشهداء، وممّا لا شك فيه أنّ لهذا العدد مركزية في الثقافة الدينية عامة والثقافة الشعبية أيضاً، فالمتتبع لتاريخ هذا الرقم يدرك مكانته الخاصة جداً، والتي ترسخت داخل الوعي الفردي والجمعي الإنساني عموماً، وهو ما يجعله يتدفق بصورة لاواعية وواعية أيضاً حين يكون الحديث عن المواضيع المقدسة والمواضيع المبالغ فيها، حيث يأخذ الرقم سبعة أبعاداً دينية مقدسة، وأخرى درامية، كما يحتفظ الرقم سبعة بمكانة خاصة في عالم الغيبيات والمرويات وكذلك في عالم المعرفة الفلكية " كان اختياراً واضحاً في الثقافتين البابلية والإغريقية... وكلتاهما استخدمتا العدد سبعة في سياق مفهومهما للمعرفة الفلكية لفهم القوانين التي تحكم الكون، مع بدايات الديانات السماوية وإخضاع الكون لمفهوم الإله الواحد المنظم الأول (عواد، 2019) للكون لم ينحسر تقديس العدد سبعة"

كما يتجلى الرقم سبعة رمزا واضحا، وقد فسرته الكتب السماوية بحسب استخدامه؛ حيث يحمل دلالة التعظيم، المبالغة والتهويل كما في المعتقد التوراتي، حين يغضب الإله "يهوه" فإنه ينزل العقاب سبع مرات على متحديه، أيضا في القرآن الكريم يحمل العدد سبعة دلالة التهويل والشدة والبطش قال تعالى: "سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ" (سورة الحاقة ، الآية 7).

كما يأخذ الرقم سبعة معنى التكثير، وهو وارد بوفرة في الثقافة اللغوية العربية، يقال "سبّع الله لك" أي منحك كل خير، وكذلك في الثقافة الإسلامية والذي يدل على التضعيف الذي يحمل معنى البركة، كما ورد في القرآن الكريم "مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ" (سورة البقرة الآية 261).

كما يبرز العدد سبعة جلياً في العقيدة الإسلامية ؛ متمثلة في شعيرة الحج حيث مناسكها سبعة، الطواف سبعة، ورمي الجمرات سبعة أيضاً، سبع سماوات وسبع أراضي،..... كما ورد ذكر العدد سبعة في كتاب "مروج الذهب" "وأما الأقاليم السبعة فأولها أرض بابل منه خراسان وفارس والأهواز والموصل وأرض الجبال وله من البروج الحمل والقوس، ومن الأنجم سبعة: المشتري والإقليم الثاني: الهند والسند والسودان وله من البروج " الجدي ومن الأنجم السبعة زحل، الإقليم الثالث: مكة والمدينة واليمن والطائف والحجاز وما بينهما، وله من البروج: العقرب ومن الأنجم السبعة: الزهرة وهي سعد الفلك، الإقليم الرابع مصر وإفريقية والبربر والأندلس وما بينهما، له من البروج: الجوزاء، ومن الأنجم السبعة: عطارد، والإقليم الخامس: الشام والروم والجزيرة، له من البروج: الدلو، ومن الأنجم السبعة: القمر، والإقليم السادس: الترك والخزر والديلم والصقالبة، وله من البروج: السرطان، ومن الأنجم السبعة: المريخ، والإقليم السابع: الديبل والصين، له من البروج: الميزان، ومن الأنجم السبعة: الشمس" (المسعودي، ص 102).

لا يخفى أن "الجانب الآخر لأرض الميعاد" كما تحدثنا في عنصر الاستشهاد، قد احتفت بهذا الموضوع وعمقته كثيرا، ما يجعله يحمل طابع القداسة، ففي مقاطع سردية رافق العدد سبعة الشهداء، الذي يحمل من الرموز الكثيرة، الممتدة في مناحي حياة الإنسان العقلية والوجدانية "نداء امرأة لم أحدده بعد أبا قيس الشهيد السابع يا أبا قيس" (حرب، 2018، ص 42) لتحمل من الدلالات العميقة الاختيارية والدرامية، كما يتكرر العدد في مقطع سردي آخر "علينا أن نذهب إلى البلد لحضور جنازة الشهداء لم أكن أعرف، حتى تلك اللحظة عن سقوط شهداء في البلد، تكلم أبو قيس عن مواجهات عنيفة مع الجيش صباح اليوم أدت إلى سقوط سبعة من الشباب" (حرب، 2018، ص 38).

لعل سبعة شهداء تؤكد استثمار فلسفة الموت "الاستشهاد" في التغلب على الآخر اليهودي، من خلال المواجهات العنيفة، التي يكون فيها الإنسان قريبا من الموت، مما يؤدي حتما إلى تراجع الشعور بالخوف، وتغدو المواجهة مسؤولية الشباب في الوجود الفلسطيني.

"لا تحزنوا على الشهيد السابع لأنه لم يمت، إنه حي مثل باقي الشهداء، وسواء وجدنا جثته أم لم نجدها فإن روحه تسكن في كل مكان، في الأرض وفي السماء، في الأنهار وفي الأشجار في الآبار، في القمر، والشمس تضيء لنا الطريق مثل هذه المشاعل المعلقة" (حرب، 2018، ص 47).

يتحول الشهيد إلى كائن حلولي، إنه يحل في كل مكان على طريقة الصوفيين الذين رأوا أن الله موجود في كل مكان والشهيد موجود في كل مكان– كما ورد في المقطع السردي السابق– موجود في الأرض في السماء....، وفي الشمس أيضا إنه كائن غير قابل للهزيمة ولا للاحتراق، بل يتحول إلى نور يضيء الطريق، هل وصل الشهيد إلى أقصى مراحل القدسية حتى صار قريبا من الكينونة الإلهية وفق الصوفيين؟

أم أن الرواية تؤكد على تمجيد الشهيد؟ أم أنها تؤكد على حياة الشهيد بعد موته؟ وترى أنه في مرحلة الانتماء إلى الله في جنات الفردوس، إذ لا يخفى أن الرواية اعتمدت الثقافة الدينية الإسلامية مرجعية دينية لها.

يبدو أن درجة "شهيد"تحقق ارتقاءً في سلم الانتماء الفلسطيني، فالشهيد الشاب يتخلى عن انتمائه إلى شبابه وعن انتمائه إلى أمه حين تهزم الأمومة أمام الموت، لينتهي إلى انتماء آخر مغاير تماما، إنه يسعى إلى العودة إلى الوطن الأول "الجنة"، التي يعاود فيها استرجاع انتماء الإنسان الأول، الذي فقده بعد الخطيئة الأولى ومن جهة أخرى يحقق رغبة الإنسان الفلسطيني القادم في انتمائه القوي إلى أرضه وإنسانيته المهدورة.

أكدت الرواية قيمة "استشهاد" الشباب مع رمزية العدد "سبعة" لتؤكد قوة الاختيار وصعوبته في آن هذا الاختيار الذي يواجه الموت بالموت من أجل الحياة، والتي بدورها تكون حياتين؛ حياة أبدية لما بعد الموت وحياة كريمة لما قبل الموت، وهي تمثيل رائع لرغبة الإنسان في تأكيد انتمائه، وحقه المشروع في هذه الأرض الضاربة جذورها في أعماق التاريخ فكيف يصبح في لحظة اسما بلا لقب، وهي مفارقة غريبة لم يستطع الإنسان الفلسطيني تعديلها إلاّ عن طريق المواجهات العنيفة، التي تعلو فيها قيمة "الاستشهاد" على كل قيم الحياة الأخرى.

8 – خاتمة

- قدمت الرواية بصورة واضحة المعالم نموذجا لتوجه الرواية الفلسطينية خلال أحداث الانتفاضة وزمن الاشتباكات .
- ركزت الرواية الضوء على حقيقة أخرى تتخفى وراء فكرة احتلال المكان، إلى استعباد الإنسان، في إشارة واضحة إلى الحرب العنصرية التي قامت عليهاكفكرة الاحتلال الصهيوني والتي بُنيت على فكرة التفوق العرقي مما يؤسس لثنائية "السيد والعبد.
- يبدو المكان مقدسا، عنيفا ومحيرا.
- اشتغلت الرواية كثيرا على موضوعاتية العنف من خلال محطات الحرب العنيفة، زمن الاشتباك، وعنف الذاكرة والحرب النفسية.
- احتفت الرواية بصورة خاصة بتجارب الموت، ولعل أهمها "الاستشهاد" الذي استدعى تجربة الموت.
- تبرز تجربة الاقتراب من الموت من خلال هزيمة الأمومة أمام جنازة الشهيد.

- شكل الاستشهاد توجها جماعيا من خلال ما حققه الرقم سبعة(7) حيث لم يكن أبدا عملا فرديا انعزاليا بل شكل نموذجا عملاقا لمواجهة الموت بالموت .
- رافقت الكرامات والقداسة موضوع الاستشهاد بصورة عميقة، مما يؤكد قوة الاقتناع وتأكيده، وقدرته في مواجهة الحرب العنيفة والنفسية التي يقودها الآخر المحتل.
- حقق الاستشهاد قيمة "الانتصار" بدل "العيش"، في انهزام واضح لسياسة التدجين التي عمل المحتل على تحقيقها .
- أعطى الاستشهاد حياة أبدية متفوقا بذلك على الموت رغم أنه صورة من صورها.

المراجع

1. أبو الحسين المسعودي. *مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجزء الأول*. مؤسسة دار الهجرة.
2. أحمد حرب. (2018). الجانب الآخر لأرض الميعاد. *01* . رام الله: دار الشروق للنشر والتوزيع.
3. إنجيل يوحنا . (1907). بيروت : مطبعة الأميركان.
4. إنجيل يوحنا ،الاصحاح11،الآية 250 . (بلا تاريخ).
5. انجيل يوحنا الاصحاح19الاية34 . (بلا تاريخ).
6. *انجيل يوحنا الاصحاح7 الاية 33.*
7. باسكال عواد. (22 فبراير, 2019). *رمزية العدد سبعة والتسبيع عند العرب، رصيف 22*. تم الاسترداد من .httpps://rassif 22.com article
8. جاك شورون. (أفريل , 1981). الموت في الفكر الغربي، ترجمة كامل يوسف حسين. الكويت.
9. دوغلاس ديفيس. (2014). الوجيز في تاريخ الموت، ترجمة محمود منقد الهاشمي. دمشق : الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة.
10. سورة آل عمران، الآية 169 . (بلا تاريخ).
11. *سورة البقرة الآية 261.*
12. *سورة الحاقة ، الآية 7 .*
13. عبد الغني مصطفى. (1994). *نقد الذات في الرواية الفلسطينية*. سينا: سينا للنشر.
14. عز الدين المناصرة. (22 أكتوبر , 2019). *الشهيد في شعر عز الدين المناصرة*. تم الاسترداد من dimanalareb.com: ديوان العرب
15. غسان كنفاني. (2015). أدب المقاومة في فلسطين المحتلة 1948 ـ 1966. *02* . قبرص: دار منشورات الرمال ، مؤسسة غسان كنفاني الثقافية.
16. فرانز فانون. (يناير , 2015). معذبو الأرض ، ترجمة سامي الدروبي و جمال الأتاسي. *الطبعة الاولى* . مدارات للأبعاد والنشر.
17. مصطفى عبد الغني. (1994). *نقد الذات في الرواية الفلسطينية،الطبعة الأولى*. سينا للنشر.
18. مليكة سعدي. (بلا تاريخ). *الآخر في الرواية الفلسطينية*. تم الاسترداد من مجلة عود اللد: https://www.oudnad.net/spip.php?article1080